ذكر رجوع الأمير أبي الوفاء توزون إلى داره بعد هزيمة الديلمي وركوبه الظهر ورجوعه في الماء

ولما فتح الله على الأمير المظفر أبي الوفاء توزون، وأظفره بالديلم، وأقام في عسكره أيامًا، وأنفذ في طلب المنهزمة من يقتل ويأسر، ولم يعجل برحيل ليتبين آخر أمر عدوه، وما زال هذا من فعل الحزمة ذي الرأي المصيب، والعزم الصحيح.

وأمر أصحابه بالرجوع إلى منازلهم، مسرورين بما صار إليهم من سلب الديالمة وسوادهم، بعد أن كثر عند الأمير على بعضهم، فما نفس بذلك عليهم، ولا سأل عنه، ولا عرض به.

ثم رحل إلى بغداد، وركب على الظهر في يوم الأربعاء لسبع خلون من ذي الحجة، فمضى في شارع المخرم إلى الجسر، ودعا الناس له، ثم انصرف في الماء إلى داره، وكانت ركبته هذه ركبة ما ركب أحد مثلها قط إلى خليفة؛ لأنه كان بين يديه مائة جنيبة ودابة وبغل بالسروج المذهبة والمفضضة، وبين يديه وخلفه من الغلمان الأتراك، بألوان الثياب وأحسن السيوف والمناطق وأفره الدواب، وهم عدة، ما اجتمع لأحد منذ مدة طويلة مثلهم. وما من قائد من قواده بعد هذا إلا وهو مساوٍ بعدته وعدته قربه لأجل أمراء النواحي وأصحاب الأطراف الممتنعين بها.

ووافى في ذي الحجة أبو علي الحسن بن هارون بغداد برسالة الخليفة المتقي لله وكتابه إلى الأمير أبي الوفاء المظفر.

وهذا رجل من رؤساء كتاب الزمان ممن خدم الأمراء السادة، وهو حدث لم يتكهل فحسن خبره، وحمد أثره. كتب ليوسف بن ديوذاذ أبي الساج، وهو

الأمير الذي لا تدفع شجاعته ولا يجهل قديمه ورياسته ولا يشك في عقله وأدبه ونفاذه في جميع الأمور، فبلغ به ومعه الغاية التي لا تبلغها الآمال وهو مع كتبته رابط الجأش قوي الشجاعة حسن الفروسية، شهد مع يوسف بن أبي الساج وقعة القرمطي بالكوفة، فما زال ضاربًا بالسيف إلى أن علم بأمر صاحبه فحمى نفسه بإقدامه وغلمانه، حتى أفلت جريحًا.

وكتب لعلي بن يلبق وهو هني لا يعد، فجعل إليه بتلطفه أمر المغرب كله وشرطة بغداد وحجبة الخليفة، إلى أن خلط عليه فتركه، فآل أمره إلى ما آل إليه، وإنما ذكرت أمر ابن يلبق معه لشيء أجيء به بعد.

سمعت الراضي يقول في خلافته: إنما كتب الحسن بن هارون لابن يلبق رحمة من الله لنا لنبقى، ولولاه لقتلنا القاهر كلنا! ولكنه كان يمنع منا ويحمل ابن يلبق على المناضلة عنا والدفع عن أنفسنا، وكان يصفه كثيرًا.

ولقد غنت ستارته يومًا بشعر مليح، فقال: أتعرف هذا اللحن؟ قلت: لا، قال: فالشعر؟ قلت: لا، قال: هذا الشعر كتب به إلى الحسن بن هارون وعمل هذا اللحن فيه، وكان عنده بمنزلة لطيفة. فلما قدم برسالة الخليفة وكتابه بلطف للأمير ابن المظفر إلى أن جمع الناس عنده في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، وفيهم خليفة القاضي أحمد بن إسحاق سهل بن إبراهيم والعدول، وأحضر من العدول من يُحسن أن يتكلم بالفارسية، حتى أخذوا على الأمير ما رضي به من القول.

وحضر الهاشميون ووقع الصلح، وانصرف الناس مسرورين، وأنفذ الحسن بن هارون كتاب الأمير إلى الخليفة، ومعه كتابه بما جرى، وانتظر الناس ورود الجواب.

وخلع الأمير على ينال المحتاجي يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي الحجة،

وولاه طريق خراسان، فخرج مبادرًا في عدة واستظهار، واتصل به وهو يعبر نسا: أن الأعراب قطعوا على قافلة فخرج مبادرًا ولم ينتظر أصحابه استهانة بالأعراب، وكان قد أطلق لصًّا يقال أبو الفرج بن مياح بعشرة آلاف درهم أخذها، وكان من حقه أن يُقتل لقطعه الطريق، فنظر إليه ابن مياح هذا، وهو في خف فطمع فيه وحرض عليه إلى أن انبرى له، فطعنه فقتله.

فسلط الله عليه اللص الذي أطلقه ظالمًا لنفسه، عاصيًا لله في إطلاقه حتى قتله، فورثه الأمير أبو الوفاء وأخذ غلمانه ودوابه وأثاثه وضياعه، وولى مكانه الفتح اللشكري، فطلب الأعراب فهربوا منه ولم يقفوا له.

وورد ابن الغمر صاحب القرمطي الذي كان أدخل أيام القاهر مشهورًا ببرنس مع الشريف أبي علي عمر بن يحيى العلوي بغداد مطالبًا بمال المفارقة، فكتب له أبو جعفر بن شيرزاد على عمال الكوفة كل ذلك، ليأمن على الحاج وهو يعلم ما عليه في ذلك.

وكان أبو بكر النقيب قد هرب من بغداد إلى ناصر الدولة، قبل شخوص الخليفة عن بغداد، فقبله أحسن قبول وخلع عليه وعلى ولده، وبلغ برزقه ألفي دينار، ومثلها لولده وغلمانه، ثم خرج مع الخليفة إلى الرقة، ثم رجع إلى ناصر الدولة فأقام يأخذ رزقه، ثم كاتب أبا جعفر في مصيره إلى الحضرة واحتال حتى قدم.

وكان أبو جعفر قد وجد على أسكروز الديلمي عامل الشرطة ببغداد في أشياء أنكرها عليه من أخذ الدراهم، وقبالة ثقيلة يلزمها ولاة الشرطة، فكاتب الأمير فيه فعزله، وولى مكانه أبا بكر النقيب، وهذا في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ولما رجع الأمير أبو الوفاء من نهر ديالي ظافرًا أنشد شعرًا في وصف ما كان

منه ومن أبي جعفر في العزم والرأي، فما وقع عند من حضر الموقع المرضي. فنطقوا بأجمعهم وقالوا لي: مثل هذا الخطب العظيم والفتح الجليل لا يكون له مدح يشتهره الناس ويرويه، فقلت: في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

نَعِمَ الْوَرَى بِسَوابِغِ النَّعْماءِ ... وَنَجَوْا مِنَ الْبَأْساءِ والضَّرَّاءِ

عَضَدَ الإِلهُ أَبَا الْوَفاءِ بِنَصْرِهِ ... عَضُدَ الْخلافَةِ سَيِّدَ الأُمَراءِ

فَأُرِيحَ قَلْبِي مِنْ جَوَى الْبُرَحاءِ ... وَلَهِيبِ نَارِ الْوَجْدِ وَالأَدْواءِ

عَادَ الزَّمانُ إِلَى نَضارَةِ عَيْشِهِ ... وَأُزِيلَتِ الْبَأْساءُ بالسَّرَّاءِ

قَدْ واصَلَ النَّصْر المُتابِعَ سَيْفُهُ ... كَوِصالِ حِبٍّ كارِهٍ لِجفَاءِ

فِي كُلِّ يَوْمٍ للأَعادِي وَقْعَةٌ ... مِنْهُ تُبِيدُهُمُ وَسَيْفُ فَناءِ

فَتَراهُمُ لَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا ... كَالشَّاءِ يَنْفُرِ مِنْ أُسُودِ ضِرَاءِ

صَرْعَى وَقَتْلَى وَالَّذِي فاتَ الرَّدَى ... مِنْهُمْ حَلِيفُ الذُّلِّ فِي الأُسَراءِ

ضَحِكَتْ بِهِ الأَيَّامُ بَعْدَ قُطُوبِها ... وَجَلا الضِّياءُ بِهِ دُجَى الظَّلْماءِ

فَصلُوا السُّرُور قَضَاءَ ما عايَنْتُمُوا ... بِالأَمْسِ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ بُرَحاءِ

قَدْ عُوفِيَ اللَّيْثُ المُطِلُّ عَلى العِدَا ... مِنْ كُلِّ مَا يَشْكُو مِنَ الأَلْواءِ

وَأَتاهُ نَصْرٌ مِنْ إِلهٍ مُنْعِمٍ ... يَقْضِي لَهُ أَبَدًا بِخَيْرِ قَضاءِ

أَعْيَيْتَ حِيلَتَهُمْ وَفُتَّ مَدَاهُمُ ... مِنْ غَيْرِ إِتْعابٍ وَلا إِعْيَاءِ

نَثَرَتْ سُيُوفُكَ بِالْفَضاءِ أَكُفَّهُمْ ... فَكَأَنَّهُمْ فِيهِ حَصَى الْبَطْحاءِ

وَعطَفْتَ خَيْلَكَ خاطِفًا أَرْوَاحَهُمْ ... مِنْ غَيْرِ إِمْهالٍ وَلا إِبْطاءِ

أَنْتَ المُعَظَّمُ فِي الزَّمانِ وَمَنْ لَهُ ... ذَلَّتْ رِقابُ السَّادَةِ الْعُظَماءِ

أَبَـتِ الإمـارَةُ أَنْ تَـزَوَّجَ غَـيْرَهُ ... مِـنْ بَعْـدِ مـا خُطِبَـتْ أَشَـدَّ إِبـاءِ
وَعَـصَى الْمـدِيحُ فَلَـيْسَ يُعْطي طَاعَـةً ... إِلَّا لَـهُ فِي سُـؤْدَدٍ وثَنـاءِ
يَلْهُـو بِأَبْطـالِ الرِّجـالِ شَـجاعَةً ... لَهْـوَ الْمُلاعِـبِ فـازَ بِـالأَهْوَاءِ
مَلِـكٌ أَبَـرَّ عَـلَى الْمُلـوكِ بِبَأْسِـهِ ... وَقَبُولِـهِ مِـنْ سَـيِّدِ النُّـصَحاءِ
أَحيـا مُحَمَّـدُ بْـنُ يَحْيـى دَوْلَـةً ... بِـصَحِيحِ عَـزْمٍ صـائِبِ الآرَاءِ
زَيْـنُ الكِتابَـةِ وَابْـنُ مَـنْ ذَلَّـتْ لَـهُ ... وَعَلَيْـهِ قِـدْمًا كِتْبَـةُ الخُلَفـاءِ
مِـنْ بَعْـدِ مـا ظَـنَّ الأَعـادِي أَنَّـهُ ... سَـيَكُونُ مَـنْ نَـاوَاهُ ذا اسْـتِعلاءِ
إِذْ سـاوَرَ الإِسْـلامَ سُـقْمٌ قاتِـلٌ ... لَـوْ لَمْ يُـدارِكْ سُـقْمَهُ بِـشِفاءِ
فَرَمـاهُمُ مِـنْ رَأْيِـهِ بِنَوافِـذٍ ... تُهْـدَى بِـلا هـادٍ إِلَى الأَحْـشاءِ
وَرَأَى حَبَـالَى رَأْيِـهِ شَرَكًـا لَهُـمْ ... فَهَـوَوْا لِحَمْتِيـهِ هُـوِيَّ دِلاءِ[1]
في كـارَ يُرْجَـى عَـيْنُ رَأْيِ مُجَـرِّبٍ ... مَـاضِي الْحُـسامِ لِحَـسْمِ هَـذَا الـدَّاءِ
سَـلْ بِـالأَمِيرِ وَسَـيْفِهِ مَـنْ رَامَـهُ ... أَوْ هاجَـهُ فِي حَوْمَـةِ الْهَيْجَـاءِ
ضِرْغامُـهُ دَامِـي الأَظَـافِرِ كُلَّمَا ... عَـرَتِ النَّوائِـبُ مِـن دَمِ الأَعْـدَاءِ
فَكَأَنَّـهُ فِي سَرْجِـهِ يَـوْمَ الْوغَـا ... بَـدْرٌ تَـلأْلأَ فِي سُـعُودِ سَـمَاءِ
وكَـأَنَّما قُـوَّادُهُ مِـنْ حَوْلِـهِ ... مُـسْتَلْثِمِينَ كَواكِـبَ الجَـوْزاءِ
مُتَلَـبِّسٌ جِلْبَـابَ صَـبْرٍ تَحْتَـهُ ... قَلْـبٌ كَمِثْـلِ الـصَّخْرَةِ الـصَّمَّاءِ
شَرَدَ الأَعـادِي خَوْفُـهُ فَكَـأَنَّهُمْ ... خَـرِقُ النَّعـامِ بِقَفْـرَةٍ بَيْـدَاءِ

(١) كذا بالأصل ولعلها: ورمي حبائل.

أَوْ كُـذْرُ سِرْبٍ قَطًا أَضَرَّ بِهـا الـصَّدى ... فَتَـسـاقَطَتْ عَطَـشًا إلَى الأَحْـشاءِ

عَطَـفَ الرِّجـالُ إلَـيْهِمْ فَتَعَطَّفُـوا ... لِـلأُسْرِ وَالإِذْلالِ فِعْـلَ نِـسـاءِ

وَأَتَـى الأَمِـيرُ بِعِـزَّةٍ وَمَهابَـةٍ ... يَخْتـالُ بَـيْنَ غِنـىً وَبَـيْنَ غَنـاءِ

خَـصِبَتْ بِـهِ بغْـدادُ بَعْـدَ جُـدُوبِها ... وَتَلَبَّـسَتْ مِنْـهُ ثِيـابَ رَخـاءِ

هـذا وَفِي أَيَّـامِ بَجْكَـمَ كَـمْ لَـهُ ... مِـنْ صِـدْقِ عارِفَـةٍ وَحُـسْنِ بَـلاءِ

تَـسْوَدُّ أَيْـدي غَـيْرِهِ فِي حَرْبِـهِ ... فَيُـضِيئُها قَيـدٍ لَـهُ بَيْـضاءِ

أَطْنـابُ بَأْسِـكَ يَـوْمَ حَرْبِـكَ عُلِّقَـتْ ... لِعُلُوِّهـا بِكَواكِـبِ الْعَـوَّاءِ

فَـضَلَتْ كَفَـضْلِ بَنِـي النَّبِـيِّ وصِـهْرِهِ ... فِي نُبْـلِ قَـدْرِهِمُ بَنِـي الطَّلَقـاءِ

فَرَقِيـتَ فِي دَرَجَ الْمَعـالِي صـاعِدًا ... تَعْلُـو عَـلَى الْعظَمـاءِ وَالْكُـبَرَاءِ

ولما استكتب الأمير أبو الوفاء توزون أبا جعفر محمد بن يحيى، وقدم بغداد، دخلتُ إليه فأنشدته:

عَـذَلْتُ امْـرَءًا فِي عِـشْقِهِ لَـيْسَ يَعْـذِرِكْ ... أَمَـا عَـاشَ أَنْ يَنْهـاكَ عَنْـهُ وَيَزْجُـرُكْ

مَتَـى لَمْ تُخْـطِ خُـبْرًا بِـما صَـنَعَ الْهـوى ... بِمَـنْ فـارَقَ الأَحْبَـابَ فَالـدَّمْعُ يُخْبِرُكْ

أَمـا لَـوْ بَلَـوْتَ الْحُـبَّ واقْتَـادَكَ الْهـوَى ... إلَى هَجْـرِ مَحْبُـوب لَقَـلَّ تَـصَبُّرُكْ

شَرِبْتُ كُـؤُوسَ الْحُـبِّ صِرْفًـا ودُونَ مـا ... شَرِبْـتُ مِـنَ الْمَمْـزُوجِ مـا لاَ يُـسَكِّرُكْ

عَـلَى الْـيُمْنِ وَالتَّوْفِيـقِ أُلْبِـسْتَ خِلْعَـةً ... بِهـا الْمُتَّقِـي لله بِـالْحَقِّ يُـؤْثِرُكْ

وَفِي خَـصْرِها قـاضٍ كَرَأْيِـكَ فِي الْعِـدَا ... بِـهِ تَنْقَـضِي أَعْمارُهُـمْ وَيُعَمِّـرُكْ

رَآكَ أَحَـقَّ النّـاسِ بـالإِمْرَةِ الَّـتِي ... يَـمازِجُ فِيهـا جَـوْهَرَ الْمُلْـكِ جَـوْهَرُكْ

يُقَـدِّمُ لِلْمَقْـدُورِ دَهْـرٌ مُعانِـدٌ ... سِـواكَ إلَيْهـا ظالِمًـا وَيُـؤَخِّرُكْ

إِلَى أَنْ وَفَا بِالْوَعْدِ فِيكَ أَبُو الْوَفَا ... فَكُلُّ أَمِيرٍ بِالصَّغَارِ يُؤَمِّرُكْ

لَئِنْ كَانَ لِلأَتْرَاكِ فَخْرٌ بِهَاشِمٍ ... فَقَدْ زَادَهُمْ فِي الْبَأْسِ وَالفَخْرِ مَفْخَرُكْ

مَلَكْتَ فَمَلَّكْتَ المُنَى كُلَّ رَاغِبٍ ... فَمَوْرِدُكَ الإِحْسَانُ وَالحَقُّ مَصْدَرُكْ

إِذَا كَاثَرَ الأَتْرَاكُ يَوْمًا بِسَيِّدٍ ... فَمَا أَحَدٌ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ يَكْثُرُكْ

وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَاجِدًا مُتَقَدِّمًا ... فَهُمْ رَهْطَكَ الْغُرُّ الكِرَامُ وَمَعْشَرُكْ

طُبِعْتَ عَلَى عَقْلٍ وَجُودٍ وَنَجْدَةٍ ... فَمَا تَسْتَطِيعُ الحَادِثَاتُ تُغَيِّرُكْ

وَسِيَّانِ فِي الأَعْدَاءِ مَخْبَرُكَ الَّذِي ... بِهِ يَنْصُرُ اللهُ الْوَلِيَّ وَيَنْصُرُكْ

وَهَلْ تَجِدُ الأَعْدَاءُ عِنْدَكَ غِرَّةً ... وَأَبْيَضُكَ المَوْتُ المُرَجَّى وَأَسْمَرُكْ

وَمَا نَصَرَ اللهُ امْرَءًا أَنْتَ حَرْبُهُ ... وَأَنَّى لَهُ بِالنَّصْرِ وَاللهُ يَنْصُرُكْ

تَخَيَّرَكَ الْبَارِي أَمِيرًا مُظَفَّرًا ... تَبَارَكَ فِي تَدْبِيرِهِ مُتَخَيِّرُكْ

رَأَيْتُكَ لِلسُّلْطَانِ مُحْيِي[1] دَوْلَةٍ ... فَهَذَا اسْمُكَ الأَوْلَى بِوَصْفِكَ يُشْهِرُكْ

تَسَمَّ بِهِ بَكْبِتْ عَدُوًّا وَحَاسِدًا ... كَمَا قَدْ تَسَمَّى قَبْلُ مَنْ لَيْسَ يَعْشُرُكْ

إِذَا الْتَفَّتِ الأَقْرَانُ وَاحْتَدَمَ الْوَغَا ... فَسَيْفُكَ بِالنَّصْرِ الْقَرِيبُ يُبَشِّرُكْ

عُرِفْتَ بِإِقْدَامٍ وَفَتْكٍ وَجُرْأَةٍ ... فَمَا أَحَدٌ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُنْكِرُكْ

وَإِنْ جَرَّ يَوْمًا عَسْكَرًا ذُو تَجَمُّعٍ ... فَسَيْفُكَ فَرْدًا فِي قِتَالِكَ عَسْكَرُكْ

تُدَبِّرُ فِي تُرْبِ السِّنِينَ أُمُورَنَا ... بِرَأْيٍ مُصِيبٍ وَالإِلَهُ يُدَبِّرُكْ

وَعَدْتُكَ هَذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ ... وَوَعْدُكَ لِي بِالبَذْلِ لاَ شَكَّ يُنْذِرُكْ

---

(1) في الأصل: مجنى مع تشديد النون وفتحها، ولم نقف على صوابها.

وَهــذَا مَـسِيحِيٌّ بقَــوْلِي شــاهِدٌ ... وَحَسْبِي بِـهِ عَـدْلًا بِوَعْـدِكَ يُـذْكِرُكْ

وَمَا زِلْـتُ مُـذْ عَايَنْـتُ شَخْـصَكَ دَائِبًا ... لَمَّـا نِلْتَـهُ أُثْنِـي عَلَيْـكَ وَأَشْـكُرُكْ

لَقَـدْ ظَفِـرَتْ كَفَّـاكَ بِالْمَالِ وَالْعِـدا ... بَـرِأْيِ ابْـنِ يَحْيَـى الْقَـرْمِ وَاللهُ يُظْفِـرُكْ

وَثِقْـتُ بِإِدْبَـارِ النُّحُـوسِ عَـنِ الـوَرَى ... وَإِقْبَـال سَـعْدٍ حـينَ صـارَ يُـدَبِّرُكْ

أَبُـو جَعْفَـرٍ فِي الـرَّأْيِ وَالْعَقْـلِ وافِـرٌ ... بِـهِ اللهُ بَعْـدَ الانْتِقـاصِ يُـوَفِّرُكْ

سَـيُورِدُكَ الْعَـذْبَ الـزُّلالَ مُجَـرِّبٌ ... عَليمٌ بِتَـدْبِيرِ الـوَرَى كَيْـفَ يُـصْدِرُكْ

لَقَـدْ ظَفَـرَتْ كَفَّـاكَ مِنْـهُ بِفاصِـلٍ ... بِـهِ اللهُ مِـنْ بَعْـدِ الْقَلِيـلِ يُكَثِّـرُكْ

فَـلا زَالَـتِ الأَيَّـامُ سِـلْمًا مُطِيعَـةً ... تُوَقِّيـكَ مـا تَخْـشاهُ فِيهـا وتَخْفُـرُكْ

وَفُـزْتَ بِـما تَهْـوى وَصـالَتْ عَـلَى الْعِـدَا ... سُـنُوكَ بِتَمْلِيـكٍ عَلَـيْهِمْ وَأَشْـهُرُكْ

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

وكان الناس قد سُروا بولاية أبي بكر النقيب محمد بن جعفر، فنادى برفع المؤن واشترط ذلك، فلما استهل شهر المحرم طولب بسنة أسكورج، فعقد على إبراهيم بن شمحور الفروقي الجانب الشرقي والصحراء والأبواب بسبعة آلاف درهم في كل شهر.

وتضمن محمد بن محمد تازى البيض وأعماله بثلاثة آلاف درهم، وعقدت الشرقية وما فيها من الأعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطي بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فإنها خمسة آلاف درهم، وضمنت دجلة والماصر الأعلى بخمسمائة دينار، وعقد القيار بألفي درهم، فصار الجميع نيِّفًا وثلاثين ألف درهم في الشهر.

فلقي الناس من ذلك عنتًا، وتعرم أصحاب الأرباع والمصالح على الناس،

والنقيب كاره لذلك لا يعرف مثله.

وكثرت الكبسات، ووثق اللصوص بالمصانعات والغرم، فكبسوا الناس ليلًا ولم يهابوا نهارًا، واجتمعوا فكان يوافي دار الرجل المقصود جيش اللصوص بالليل بالسيوف والنشاب، لو حوربوا لما وفاهم القليل.

واستلب كيس رجل يُعرف بغلام ابن الأبواري الصيرفي مع المغرب، وفيه خمسة آلاف دينار ليلة الجمعة لأربع بقين من المحرم وكان الكيس على رأس حمال، فصاح الرجل والحمال، فرماهم الناس بالآجر، ورماهم اللصوص بالنشاب، فتفرقوا عنهم، وبادروا ناحية دار علي بن عيسى، ونزلوا الشط إلى سميريات أُعدت لهم، فأقرَّ حارس الموضع أنهم أصحاب المعروف بابن بغرة، النازل بدار الترجمان في قصر عيسى، فأخذوا فأقر بعضهم أنه دفع المال إليه، وجحد هو أن يكون يعرف ذلك، وتعصب له بعض الأتراك وطاح المال.

وكان رجل يعرف بممراج استأمن من عسكر البريدي ومعه من اللصوص البطارقة الحذاق جماعة، فصار يخدم في دار أبي جعفر هو وأصحابه، يكبسون الناس ليلًا، ويعترضونهم في دجلة، ويجتمع هو وأصحابه وكاتبه النصراني المعروف بسكباج، لعنه الله، على النفقات والقيان والأنبذة والفسق.

وكان معه كلابزي قواد وكان مع زباشي التركي كلابزي مثله، فتغايرا على قحبة، وأعان كل واحد صاحبه، فجرت بينهما حرب وأمور قبيحة، ثم كانت خطوب، وقتل ممراج هذا، والحمد لله.

وظهر سعيد بن داود المسيحي، وعاد أخوه إلى خدمة الأمير والتطبب له، وكان طبيبه قديمًا، وذلك في المحرم.

ووجه ناصر الدولة بأبي عبد الله الحسين بن سعيد أبي العلاء مع غلام أبي بكر بن مقاتل إلى الشام، في جيش كثيف بعد أن أزاح عللهم لمحاربة ابن طغج

ودفعه عن الشام، فمضى حتى تجاوز حلب، فلقيه جيش ابن طغج الأخشيذ فهزموه وأسروا رجاله وغنموا أمواله، وولى هاربًا في قلة يريد الرقة، فلما شارفها تقدم الخليفة المتقي لله بغلق أبوابها، ومنعه من دخولها فأقام أيامًا.

ووجه إلى الخليفة برسالة غليظة فأذِن له ووبخه على تسريحه لقتال من لم يأمر بقتاله.

ووافى ابن طغج في أثره، فخرج ابن عمه سيف الدولة وقد كان ابن عمه تنحى عن الرقة، فأعطى المتقي لله مالًا وفرَّق على جميع من معه مالًا على أقدارهم، فأمسك بذلك أرماقهم، ولولا فعله ما كان بهم نهوض، ثم رجع ابن طغج إلى حلب فيقال: إنه أعطى الخليفة مائة ألف دينار سوى الآلة والثياب.

ووجه إلى الوزير بثلاثين ألف دينار، وإلى الحاجب أحمد بن خاقان بعشرة آلاف دينار، هذا تأدى إلينا ولم نشاهده.

وزاد غلاء السعر على الناس فشغبوا في الجانب الغربي يوم الجمعة، وتكلموا بالعظائم، ومنعوا الإمام الصلاة، حتى انصرف أكثر الناس، ثم صلى الإمام بمن بقي صلاة خفيفة.

وخرج الأمير أبو الوفاء إلى البثق بنهر عيسى، ومعه قواده ومال من خاص ماله مؤملًا سده، وذلك في أول المحرم فأقام أيامًا عليه، واجتهد هو وأبو جعفر في النفقة، وإطلاق المال. ثم إن الله عز وجل لن يأذن في ذلك، فحمل الماء أكثر العمل، واغتم الأمير لذلك غمًّا شديدًا.

ولما وصل كتاب الحسن بن هارون إلى المتقي لله بما صنع، وجه المتقي لله بأحمد بن عبد الله بن إسحاق القاضي من الرقة إلى الأمير أبي الوفاء المظفر لتوكد الأيمان عليه، وموافقته على شرائط شرطها له، ويشهد عدوله عليه، ووجوه الهاشميين.

فوصل القاضي إلى بغداد يوم الخميس، لأربع خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ففعل جميع ما تقدم به المتقي لله إليه، وكان قد وجه معه بخلع، وطوق ذهب، ليخلعها على الأمير إذا فرغ مما بينه وبينه، ففعل هذا كله إلا أمر الخلع.

وأمر الأمير بعمارة دار الخليفة، وبناء ما استهدم منها، وكان يركب بنفسه حتى يشاهد ذلك ويعاينه، وكان في الرسالة أن يخرج الأمير إلى واسط، فقال: هذا لا أجيب إليه، يعمل على أبي ابن طغج إذا قرب من بغداد خرجت وتلقيته، وأزلت كل ما في نفسه، فإذا صار في داره أمرني بما شاء حتى أفعله، وإن خرجت ولم أره كنت عند الناس عاصيًا! وامتنع من أن يلبس الخلع بحضرة الخليفة إذا رآه، وكتب القاضي إلى الخليفة بإحكامه له جميع ما أراد، وأشار عليه بالمبادرة إلى الحضرة.

وعظم أمر اللصوص، وكبس الناس في منازلهم وقتلهم، وأخذ أموالهم.

فولى الأمير أبو الوفاء الطوف رجلًا أعجميًا، وضم إليه جماعة فأفرط في أمر الطوف، وجرى إلى أشياء عظيمة، حتى تمنى الناس أنهم أعفوا منه.

ووجه الأمير بقوم من أصحابه، فأمرهم أن يكبسوا أهل الريف من النباذين والقوادين، وتعطيل ما يجري من أمر النباذين بدار الروم بالجانب الشرقي، ونسب ذلك إلى الجاثليق، وأن له عليهم قائمًا، وأنه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم، وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاد وابن سنكلا، وعطف بعد ذلك على النباذين والقوادين، فحبس منهما وعاقب، وسكن أمر البلاء قليلًا.

وانكسف القمر ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر، وغاب كله.

وتحدث الناس بمجيء الخليفة المتقي لله إلى هيت، وخرج القاضي الخرقي إليه فعرفه جميع ما جرى، فسكن إلى ذلك ورجع القاضي إلى الأمير يعرفه،

فدخل بغداد يوم الثلاثاء للنصف من صفر.

وركبت مع أبي جعفر في الطيار، فأعلم الأمير أنه يتلقى الخليفة بالأنبار، فقدم الأمير الطيارات إلى باب الشماسية، وقال للقاضي تعبر بالخليفة من المزرقة وهي قرية بأعلى قطربل بفرسخين، حتى يدخل بغداد من الماء، ونصب الناس القباب بباب الطاق، وأخرج الأمير توزون أثقاله وجماله إلى باب الأنبار، وخرج يوم الأربعاء، وأقام في الطريق وسار يوم الخميس.

ولا والله ما سمعت بأعجب من أفعال المتقي لله كلها، أول خطئه، وتركه الرأي، وركوبه العوز: تركه دار مملكته، وخروجه عنها برأي الترجمان وأشباهه لغير سبب أوجب ذلك، ولا اضطرار دعا إليه. [و]الأمير توزون إلى وقته ذاك مطيع له تابع لما يشتهيه، عالم مع ذلك أن الصواب والرأي غير ما تكلفه.

فمن ذلك: أن الأمير أقام بواسط، ليستنطف الأموال بها، فكتب إليه: دع كل شيء، وصر إلي، ولعن الله المال! فراجعه فألح عليه فقدم، فخلع عليه وأمره. وأشار الأمير عليه أن يصالح بني البريدي إذ كانوا قد ظفروا بمجيئه بكثير من المال. وقال: نستعجل الأموال منهم، ونحن على أمرنا بعد ذلك. فخالفه، وقال لا بد من محاربتك لهم، وإزالة أمرهم، وكان رأي الأمير صوابًا في هذا، فترك الرأي ولم يخالفه.

وانحدر هذا بعد أن قد كان كتب قبل ذلك بالإيقاع بسيف الدولة ليريحه الله هو بذلك من ناصر الدولة ببغداد، ولكرم الأمير توزون وحسن عهده ما ترك سيف الدولة حتى جاء لأسباب دعاها له، ولو أراده ما فاته، ثم ما عامله من الخروج عن بغداد يرى الناس أنه فزع منه، وأن الأمير عاصٍ له.

ثم ما حمل ابن حمدان عليه من محاربته مرة بعد مرة، على كراهة ابن حمدان للحرب، كل ذلك طمعًا من المتقي في إزالة الأمير عن مرتبته.

ومنها أنه كاتب صاحب خراسان يستنجده عليه، والأخشيذ بن طغج بمثل ذلك، كل هذا هو فيه ظالم للأمير توزون، ثم إقباله بعد ذلك حتى وضع يده في يده، ظن أن الأمير هو حدث أعجمي نسي هذا كله، والله لو فعل [الرشيد] هذا بالمأمون في حلمه وعقله، وهو ابنٌ له ما احتمله!

وأعجب من ظنه بأنه لا ذنب له ونسيانه ما فعله: ذهاب الرأي عن جميع من معه ممن يدبره، وما ذهب على العقلاء، ولا على أهل الرأي. فلقد رأوا الذي فعله الأمير بالرأي قبل كونه.

[آخر أمر المتقي لله]

فكان قبض الأمير على المتقي لله يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، وكان هذا كله بغير علم أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد ولا اطلاع عليه، ولا مشاورة له فيه، ولا علم به إلا في وقته.

ولما توثق من المتقي لله في المضرب نهب أصحاب الأمير عسكره، فلم يفلت من جميع من كان معه أحد، وخرج قوم لتلقيه فنهبوا.

ووجه الأمير بصافي الخازن إلى دار ابن طاهر، لإحضار أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بالله، وأخذ الخاتم من يد المتقي وسلمه إلى صافي.

فصار صافي إلى دار ابن طاهر، واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله فألبسه ثيابًا جاء بها معه ودفع إليه الخاتم وقلد سيف حمايل، وصار إلى مضرب الأمير، فعقد له الأمر، وكحل المتقي لله فصاح فأمر أصحاب الدبادب فضربوا بها، فصاح فلم يسمع صياحه، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله.

وكان هذا كله يوم السبت بالعشي، لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، بل وجه في طلب الخليفة أبي القاسم قبل أن يقبض على المتقي.

وكان المتقي لله لما قرب الأمير منه، ولقيه ركب قبة نمور أهداها ابن طغج له، فلما رآه الأمير أكب على الأرض فقبلها بين يديه مرتين فقال له: اصعد معي، فلم يصعد وكان عدنيله خادم له، فلما سايره وصار إلى السندية أحدق به الديلم، فقبض بعضهم على لجام بغلته العمارية، وعدل به، فأنزل المضرب، وتسلمت دوابه وجنائبه التي كانت تقاد بين يديه، وأخذت خزائنه، ونهب عسكره كله.

وكان من أمره ما ذكرناه، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا، أولها يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وآخرها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وما أعجب ما اتفق له من صحة الأخبار فيه، جاءت الرواية أن عمر الحادي والعشرين من الخلفاء أقل من ثلثي عمر الذي كان قبله وأكثر من نصفه، فكان كذلك.

وذكر بلیناس في كتابه الذي ذكر فيه الكسوفات، وهو كتاب قديم قد أُلف في قديم الدهر (أمر ملك بابل) فقال وأنا أحكي لفظه من كتابه، ومن طلب هذا الكتاب وجد ما ذكرته فيه على ما شرحته إن شاء الله.

قال بلیناس: (انظر إلى سر غامض في لكسوفات، إذا كانت الشمس في الميزان، ووقع كسوف القمر، وهو في الحمل، وزحل في السرطان والمريخ في الجدي- هلك ملك بابل).

فاتفق هذا الكسوف على هذه الصفة بعينها، فكان بين الكسوف وبين هلاك المتقي لله أسبوع.

ذكر عمال المتقي لله وقت زوال أمره

أمير الأمراء: المظفر أبو الوفاء توزون.

وكاتبه المدبر للأمور: أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد. وعلى وزارته: أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة.

وعلى شرطته ببغداد من قِبل الأمير توزون: أبو بكر محمد بن جعفر النقيب. وعلى قضائه: أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي. وعلى كتبة ضياعه أبو العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني. وعلى الحسبة ببغداد: المعروف بالأسمر من أصحاب الأمير. وعلى حجبته: أبو العباس أحمد بن خاقان المفلحي، مولى أمير المؤمنين.

وإلى الأخشيذ أبي بكر أحمد بن طغج مولى أمير المؤمنين: مصر والشامات.

وإلى الحسن بن عبد الله بن حمدان أبي محمد: الموصل وديار ربيعة وديار بكر وقردى وبَزِيذَى وبهذرا[1].

وإلى نوح بن نصر بن أحمد الخراساني: خراسان.

وبفارس والأهواز وكورها وقشير ومناذر وسرق وأرجان: علي بن بويه. وأصبهان: الحسن بن بويه الديلمي، وكانا يقيمان الخطبة له.

وعلى الصلاة بالجانب الشرقي بمسجدي الرصافة ودار السلطان: الحسن بن عبد العزيز العباسي وولده.

وعلى الصلاة بالجانب الغربي في الجامع بمدينة أبي جعفر المنصور: ابن بريه الهاشمي من ولد المنصور.

---

(1) لم نقف عليها في ياقوت.

وعلى الصلاة بمسجد براثا: أبو الحسن أحمد بن الفضل بن عبد الملك الهاشمي وابنه.

تمت أخبار المتقي لله، وهو آخر ما عمله الصولي من أخبار الخلفاء

والحمد لله العدل الذي لا يجور، وصلى الله على محمد وآله وسلم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

obeikandl.com